

عن تعاضض النقد.. عن مخيلة تستهويها أناقة الأشياء
و..... الكلمات (*)

بنعيسى بوحالة

(1)

مذ كانت الممارسة الشعرية - و الإبداعية بعامة - إلا و هي عرضة لممارسة نقدية ملازمة لها تمتلك معاييرها في التقييم و أوافقها في المفاضلة، و مذ كان الشعراء إلا و مستقرهم، ضمن كافة الآداب الوطنية، في خانات و مراتب، بله طبقات كما جرى به العمل في النقد العربي الكلاسيكي مثلا، يتعهدا الحقل المجتمعي - الثقافي بالصدق و الشرعية و التكريس. لكن و مذ وجدت الممارسة الشعرية و وجد القائلون عليها تحصلت أيضا ضروب من الأحكام القسرية أو الإطلاقات الاختزالية، و مثلها ألوان من الصموات أو الإرجاءات التي أدى كلفتها الاعترافية شعراء لم ينالوا، لهذا المسوغ أو ذاك، نصيهم من الاعتناء و لم يتدبر، بالتالي، منجزهم الكتابي بما يليق به من نزاهة و إنصاف.

و على شاكلة ما حصل، عربيا، في شعرية الريادة لَمَّا استأثر بدر شاكر السياب و عبد الوهاب البياتي و أدونيس و صلاح عبد الصبور و محمد مفتاح الفيتوري و أحمد عبد المعطي حجازي و سعدي يوسف.. بتلك الحظوة النقدية و الإعلامية، المستحقة ما في ذلك ريب، التي ستغطي على الأدوار المنتجة في نطاق هذه الشعرية لحشد هائل من الشعراء العرب الذين جايلوا جملة الأسماء البارزة الملمع إليها، لربما اعتبرنا الشعرية الستينية، إن نحن اقتصرنا على عقد الستينات، بالمغرب مجلى قاعديا لهذه المفارقة التي ستطول أكثر من واحد من الشعراء المنتسبين إلى جيل الستينات و منهم الشاعر عبد الرفيع الجواهري، ذلك أن تموقع بعض شعراء الجيل في بؤرة المشهد الشعري و توزع البعض الآخر على أطرافه، حقيق، فيما نرى، بمباشرة تأمل سيميولوجي، مدعوم بأسئلة سوسولوجية تتصل بإولية الإنتاج و التداول الثقافي، بغية وضع اليد على مختلف الحثيات، الإبداعية و غير الإبداعية، التي استحكمت في هندسة المواقع الاعترافية للشعراء الستينيين، و التي بموجبها ارتفع منسوب الضوء النقدي و الإعلامي المسلط على هؤلاء و استفحلت درجة التعظيم الذي كان جزاء أولئك.

ليس في نيتنا، في هذا المقام، إعادة توضيب المشهد الشعري المغربي بقدر ما نتوخى جذب الانتباه، و كفى، إلى هذه المفارقة و إعمال التفكير فيها لكونها تنطبق على أسماء و خبرات شعرية لا يستهان بها كان لها دورها المتعين و الأساسي في إطلاق - تركيز المشروع الشعري الحداثي بالمغرب ضمن إمكاناته الكتابية و التعبيرية المفتوحة و معيقاته التصورية و الأدائية سواء بسواء.

قد نذهب، مثلا، إلى كون الحذب الذي لقيته تجارب أحمد المجاطي و محمد السريغيني و محمد الخمار الكنوني الشعرية، نقديا و إعلاميا، مرده، علاوة على الاقتدار الشعري البين لهذا الثالوث الذي هو بمثابة النواة الصلبة لتشكيلة شعراء الجيل الستيني، إلى انتساب هؤلاء الشعراء إلى الحرم الأكاديمي، أي تواجدهم في صلب مجال معني، بامتياز، قراءة و تتبعنا و نقدا بالإنتاج الشعري لأنه موئل فاعلين / منفعلين ثقافيين قريبين، فعليا و رمزيا، من منتوجهم الشعري، و من حيث الإغراء الذي تباشره الأساطير الشخصية للمبدعين فقد نردف إلى هذا الاعتبار الأسطورة التي أرختها في الوسط الثقافي العام بوهمية المجاطي الخلاقة و الجميلة، و سطوة السريغيني المعرفية و الفنية، ثم هشاشة الكنوني و دمائه الروحية، هذا من غير ما تنحية كاملة لدواعي تحفيزية أخرى متباينة و ملتبسة، إيديولوجية و فكرية و أخلاقية، تنمي هذا الحذب و توطده.

أمّا عبد الكريم الطبال، الذي حاز، بكيفية أو بأخرى، قدرا من الاهتمام النقدي و الإعلامي، فيرجع أمره، بحسب ما يعنّ لنا، و بصرف النظر عن قريحته الشعرية المكيئة، إلى تموضعه، مكائيا و مهنيا، على العكس تماما من تموضع الثالوث المذكور، أي في بلدة شفشاون الهادئة، المحصنة ضد إكراهات المدن الكبرى، الجامعية و غير الجامعية، مما سيسعفه على التفرغ لتجربته الشعرية، التي لا يكف عن تطويرها و تجديرها، في استقلال عن أي اعتبار مؤسسي، جامعي، كان، ما دام يمتهن التعليم الثانوي، زد على هذا تحرره من أيما ارتهان بالتفاعلات المعقدة التي تكيف، عادة، الشأن النقدي و الإعلامي، في مراكز القرار الثقافي، و تسطر للنقاد و الإعلاميين جدول عملهم.

و في الفسحة القائمة بين هذين الحدين الموصوفين تنتشر أسماء أخرى من نفس الجيل الشعري في مدن تطوان و طنجة و مكناس و الدار البيضاء و مراكش، في قلب المغرب النافع ثقافيا و إعلاميا، إن شئنا، و تمارس مهنا الوسطية، إن جاز التعبير، كالتعليم الابتدائي و التعليم الثانوي و الصحافة و المحاماة.. و هي حالة كلّ من محمد الميموني، و عبد الإله كنون، و أحمد صبري، و محمد علي الهواري، و بنسالم الدمناتي، و عبد السلام الزيتوني، و عبد الرفيع الجواهري، الذين دفعوا ضريبة هذه الوسطية، إن نقديا أو إعلاميا، على الصعيد المغربي، فأحرى الصعيد العربي و لو أن اثنين منهم استطاعا، في حدود معرفتنا، اختراق حاجز النشر بالشرق العربي و هما عبد السلام الزيتوني الذي

طبعت مجموعته الشعرية الموسومة بـ "نسيت دمي عندهم" (1994) بدار الكرمل الأردنية، و عبد الرفيع الجواهري الذي صدر ديوانه الأول، "وشم في الكف" (1980) عن دار ابن رشد البيروتية، و عندما نتقري إشارية تاريخ صدور ديوان عبد الرفيع الجواهري بالذات فلن نبطئ في تخمين أهمية مكسب كهذا يحققه شاعر مغربي في فترة كان فيها هاجس النشر في الميترولوجيا الثقافي العربي ضاغظا على المبدعين و كلّ مكونات الإنتلجنسيا المغربية.

(2)

مدموغا بذاكرته الغضة التي تشربت بهاء مدينة فاس و استعاريتها المدوخة، الناهضة عفو التاريخ و المعيش و العمران و اللسان، و بذاكرته الأخرى المكتهلة، المنضودة بفتنة مراكش و مجازيتها الأسرة، ببلاغة الاحمرار و خفة الكينونة و ملاحه اللثغة، أي مورطا، عن الآخر، في المناداة القصية، المهموسة لحاضرتين باذختين، لكن ملسوعا أيضا بالبرود السريالي لمدينة الرباط و معروقا، في أن، باجتفافها الخيالي... مشروطا بمراسه الإعلامي المنتج، إن في السمعى أو في المكتوب، و بثقافته القانونية المستنيرة... مزودا بفتنة الذهن و نباهة العين المتغورة اللاقطة، بأناقة كيانية مقيسة بالميليمتر... متخما، إضافة إلى هذا و ذلك، بمقروءاته في جنس الشعر و في غيره من الألوان التعبيرية انضوى عبد الرفيع الجواهري، عن أهلية و جدارة، إلى محفل شعراء مجاليلين له صنفا، في الأدبيات النقدية و الإعلامية المغربية، ضمن ما اصطلح عليه بجيل الستينات، و تضافرت جهودهم، كلّ بحسب إمكاناته و قدراته، من أجل بناء الشعرية الستينية و إرساء منظومتها التصويرية و الأدائية و الرؤيوية.

صحيح أن تجربته الشعرية تنتمي، على هذا النحو أو ذلك، إلى الأفق الرؤيوي، نقول الرؤيوي و ليس الرؤيوي، الذي اقترحه محمد بنيس في كتابه، "الشعر المغربي المعاصر: مقارنة بنيوية تكوينية" و سعى إلى تشخيصه إجرائيا و توصيفيا، نقصد أفق الرؤية الانتظارية، المأساوية، بيد أن صاحبها تهيأ له أن يختط لها مسارا متقدرا لا من حيث السجل اللفظي أو السنن الإيقاعي، الإبدالات أو الترصيفات الناسجة للجمل و العبارات و المقاطع، و القصائد في المحصلة، الأبنية الموضوعاتية أو الاحتفارات المجازية و المتواليات الترمزية... يشي، انطلاقا من المردود النصي و التخيلي لقصائده، بانشغال صميم بالسؤال الشعري، بهم الكتابة أو، بالأولى، بالرغبة في تملك ناراها المقدسة و المتأبئة. فسيان اتصل الأمر بديوانه الباكر، "وشم في الكف" (بيروت 1980)، أو بديوانه الثاني، "شيء كالظلم" (مراكش 1994)، فإن القراءة لتلقي ذاتها في رحاب جملة شعرية لها من الكفاية النصية و التخيلية ما يؤشر على مسلك كتابي صبور و تنقيحي محمود، بحيث، و في اللب من المقتضى الإيديولوجي و السياسي و الأخلاقي الذي وجهه الكتابة الشعرية على مدى عقدي الستينات و السبعينات أمكنه أن يضع المخيلة على جملة شعرية لا تجافي، بالمطلق، الوازع التعبيري عن ضمير مجتمعي عام موال لتطلعات و آمال تاريخية عريضة انجراحه بمرارة جملة من النكسات و الخيبات، الوطنية و القومية و الإنسانية، غير أنها لا تفرط، قيد أنملة، في استيفاء شعريتها الموصولة، إن نحن اعتمدنا مقولات النقد العربي الكلاسيكي، بدلالات الماء و الرنق و الطلاوة و السلاسة...، المتنافية مع دلالات المعاطلة و الاستخشان و الغرابة و الحوشية... إنها ليست شعرية رخوة أو ناعمة كما قد يتبادر إلى الذهن و إنما هي شعرية ينطبق عليها وصف السهل الممتنع، بلغة نقادنا القدامى دائما، أي يسر البناء الشعري بالنسبة للشاعر و استعصاؤه، في نفس الوقت، على غيره من الشعراء، طبعاً داخل فضاء كتابي، محكوم باشتراطات القصيدة المعاصرة و إلزاماتها، قلة هم الشعراء الذين استطاعوا تأثيثه بجمال شعرية من هذا النمط تضمير ليونة قوامها النصي و التخيلي جوهرنا بنائيا صفته المركبية.

و لأنها جملة شعرية أنيقة، أنقتها من أناقة ما تنتقيه من أشياء و توضعات و وقائع و محكيات... تحولها من هيئة المعطى الخام إلى مادة مأهولة بجدة شعرية مغتنية، و كذلك من أناقة ما تفرشه من مفردات و يغلفها من إيقاعات و تجترحه من أحيلة و تماهيات... فإن لهذا ممّا سيمنحها قابلية فائقة للانتقال إلى كنف الموسيقى و الغناء، شأنها شأن بعض قصائد مجاليله، محمد الخمار الكنوني و أحمد صبري، و بتعبير مواز قابلية أكبر للذويوع و الانتشار، و حسبنا أن نشير هنا إلى القصيدتين - الأغنيتين، "القمر الأحمر" و "راحلة"، اللتين تشكلان عنوانين فارقين في المتن الغنائي المغربي، إذ خلفتا صدى جيدا لدى الذائقة الشعرية - الموسيقية الراقي ذوقها.

هذا و إذا ما كان الإلقاء الشعري واحدا من مآزق الممارسة الشعرية المغربية، ماضيا و راهنا، فالظاهر أن عبد الرفيع الجواهري أبان عن استعداد ملموس لمغالبة هذا المآزق و البرهنة على أنه بشيء من الجهد و العزم يمكن تدليل هذا العائق و تطويع اللسان الشعري المغربي لمتطلبات الإلقاء الاحترافي المقنع. فهو يتقن قراءة قصائده مستعينا، في هذا المضمار، بما استمده من تجربته الإذاعية و الترافعية في تربية نبرة إلقائية جاذبة، في تفصيل السلالم القرائية و التناور المقامي بالكلمات و الأسطر و المقاطع، مصالحا هكذا الكلام الشعري مع لسان منشده.

و إلى حين انتباه النقد و الإعلام إلى رصيده الشعري المأزق و الخصيب، انتباها حقيقيا يناسب حجم هذا الرصيد و نوعيته، سيظل عبد الرفيع الجواهري شاعرا فاعلا، بطريقته الخاصة، في المجال الشعري المغربي، إنه شاعر معني، لا محالة، بصلادة التاريخ، بقبح اليومي، غير أن هذا لا يعفي على كونه معنيا، بالموازاة من صلادة التاريخ و قبح

اليومي، بتجميل جسد قصيدته، بتأنيق الأشياء و الكلمات، و تحويل اللحظة الشعرية إلى لحظة إمتاع ذهني و روعي دفعة واحدة.

(* نص الورقة المعدة بمناسبة حفل تكريم الشاعر عبد الرفيع الجواهري الذي نظمه المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب بالرباط يومي 17/16 مارس 2001.